من الأدب الفرنسي

هنريت البائســـة

للكاتب الفرنسي أندريه موروا

لشد ما كانت دهشتي عنـد ما دعاني صديقي روبير بالتليفون الى زيارته بمنزله ، لقد جالت في نفسي خواطر كثيرة أثارت على حربا من الشكوك والريب . لقد كنت أشعر بحنان شديد وعطف خالص لزوجته هنريت ، وكان روبير حسن الذوق لطيف المعشر ، يميل الى المداعبة في شيء من المجون ، وهو بعد عاشق من عشاق الخمر الذين يتهافتون على الكأس ولا يتركونها إلا الى الكأس

ما عهدت في حياتي ولاء مثـل ذلك الولاء الذي كانت هنريت تتعهده به طوال خمسة عشر عاماً لم تذق خلالها يوماً واحداً من السعادة

لقد لقيته في اليوم نفسه وتصافحنا ثم جلست قبالته ، وظل صامتاً ثم حرك يده في هدوء ، وأخرج علبة سجائره وتناول إحداها ثم أشعلها وأومأ الىّ برأسه ثم قال :

— إن لي عندك حاجة فهل لك أن تقضيها . . ؟ وعليك في الحالين أن تصدقني الوعد . . . إنني لن أسيئك في مادة ، ولن أجهدك في عمل ، وإنك تعلم أن هنريت تحترمك وتأخذ بآرائك من غير تفكير ، وحسبك هذا منها دليلاً على ثقتها بك . إنك رجل قد خبرت الحياة ولابستها وعرفت عنها كثيراً . . . وهنريت عاقلة تفهم عنك ذلك بقدر ما أفهم أنا عنك . لقد عرفت بتجاربي الخاصة أنك رجل سديد الرأي ، ولا يفوتن صواب قريحتك أن نصائح الزوج لا تلقى من الزوجة أذناً صاغية ، ثم نفث من فمه نفثة غليظة من الدخان ، ونظر الى بعينين يفيض منهما الحنان والألم ، وعقب قائلاً

— فكر معي يا عزيزي — لقد قيضت لي الظروف عند عودتي من المؤتمر لقيا امرأة ، أو لنقل فتاة ، ولمت بها لساعتها ، هي من أهل الشمال ، وقد تبين لي ذلك من لهجتها وصوتها ، وقد تعجب يا صديق إن قلت لك إن هذه اللهجة وذلك الصوت الأبح ، هما اللذان أسرا لبي وملكا على قلبي . . لقد بعثت في هـذه الفتاة حياة جديدة . . أوه يا صديقي ما أشد قسوة الظروف وما أمرها ! لا يكاد الانسان منا يتناول الكأس إلى شفتيه الظامئتين حتى يعيدها مجبراً قبل أن ينال منها رشفة . . .

هكذا كانت رحلتنا في الطائرة . . لم يتسع الوقت لأن نجرع من الكأس ولو جرعة . . إنك تعرفني يا صديقي . . أنا لا أطيق صبراً على شيء تداعبه نسمة من الشك . . وتعرف أن لذة الانتصار يدفعها جنون الغرام تحماني على أن أركب متن الشطط حتى أنتهي . . .

ولقد دعاني المؤتمر اليه في الشتاء القادم — وستبقى هنريت — هنريت المسكينة . . ستبقى هنا يا صديقي ، وستبقى بجانبها أنت لتقوم بدورك فقلت :

— بينك وبين زوجتك ! . . ومن أين لي ذلك . !

فقاطعني قائلا :

— رويداً يا عزيزي . . هون عليك فالأمر سهل يسير . ولن أذهب بك إلى شيء غير ما يصلح من شأن هنريت ، لقد أخذ يتسرب إليها الشك في تلك الرحلة حتى صممت على مصاحبتي . . . وإن ذلك لأمر قريب المحال . . كل ما أريد أن أستمده منك من معونة لا يكلفك إلا أن تفوه ببضع كلمات ، وستحدثك هنريت في هذا الموضوع وتصارحك بكل شيء . . .

فسر لها يا صديقي حاجة الكاتب إلى الظهور في مثل هـذا البلد الغريب الذي سأرحل اليه حتى تسوغ سفري . ثم قل لها إن الوقت سيكون قسمة بين ولائم تورث النفس السأم ، ومقابلات رسمية تبعث فيها الضجر والملل ، ولا يفوتنك ذكر تكاليف الرحلة ، فكيف بها إذا صاحبتني وأنا أحرص على راحتها ، وأخيراً حل بينها وبين مرافقتي ، وخفف من غلوائها فهي لابد لنصحك مستمعة ، ولرأيك خاضعة ، ولسؤالك مجيبة ، ولا تنس — لا تنس أن تقرب إلى ذهنها أني لا أزال باقياً على حبها ، وأني سأسهر على سعادتها ما حييت ، وفي الغد ستسنح الفرص لأشهر طوال أعيد إليها خلالها ذكرى أيامنا الماضية الجميلة

لقد دام حديثه قرابة ساعة ، بينما كان صوت أصابعي وهي تنقر على المائدة التي جلسنا حولها في غير انتظام يتجاوب صداه في أنحاء الغرفة ، وأخيراً تركني من غير أن يطمئن الى وعدي ،

وبعـد الظهيرة بقليل لم أشعر إلا ويدى تحمل آلة المسرة ولقد كانت مصادفة غريبة عند ما سمعت صوت هنريت تناديني

— برتراند !... كيف حالك يا عزيزى الصغير ؟... أظن أن فى وقتك بقية اليوم متسعا للقائى ، فهل تسمح بزيارتى ؟.. سأعد لك فنجاناً من الشاى ، وربما يكون هناك مشورة بينى وبينك . . . أسرع يا عزيزى

* * *

لقـد كانت ممسكة بكتاب « باخ » تحركه فى يدها فى طفولة بريئة ، لم تكن هنريت تقل عن الأربعين ، ولم تكن تزيد عليها ، ولكنها ظهرت لى فى هذه الليلة فى ثوب فضفاض ، وقد شاعت على قسماتها أشعة من نور الشفق الأحمر الحائل كامرأة فى الثلاثين

قالت لى فى غير تكلف :

— ياصغيرى برتراند ! — سأكلفك أمراً تؤديه إلى — واعلم أنى سأكون لك مطيعة . . . ولأمرك سميعة . . .

— إنك تعلمين علم اليقين يا هنريت ...

فقاطعتنى قائلة :

— هيه يا عزيزى برتراند ! ليس فى الوجود رجل أوليه ثقتى غيرك ، ولكن الأمر خطير . . . عزيزى برتراند . . . انى ... أحب ... أحب شاباً يصغرنى بكثير ... إنى أعلم أنك ستمقت هذا الشاب وستحقد عليه وسيتملكك السخط على اذا قلت لك أن بينك وبينه تباينا كبيرا ... هو شاب سلافى جميـل طالب بكلية باريس ، وهو فوق ذلك راقص ماهر ومثقف الى حد كبير ، وبرغم ذلك لا أرتاح اليه كثيراً ، إذ هو مجنون ، دنىء الأصل كابتيين لى .. ولكنى على الحالين أحبه . . وأنا سعيدة به

فقلت :

— أوه . . . وروبير . . ! !

— روبير لا يعرف شيئاً عن هـــذا الحادث . . . روبير يرعانى كمن يرعى امرأة مسكينة ، أو كمن يشفق على خادم بائسة عضها الدهر ... لقد صرت بغيضة اليه وهو بعد فى شغل عنى بفتاة داتيمركية

— كيف ؟ أتعلمين هذا الخبر ؟

— هوه !... منذ أمد بعيد ، وكيف عرفت أنت ذلك ؟ !

— لقد كان روبير عندى اليوم صباحاً

— أحدثك عن هذا الموضوع ... يالله من نذل جبان ! .. إن صراحتى لك تجيز لى التماس ضراعتك .. استمع لى يا برتراند .. سيسافر روبير ، وسيقضى فى رحلته خمسة عشر يوماً من شهر أكتوبر القادم ، وسأطوف أنا و « فيدين » الجزر الاغريقية

فقلت :

— هنريت ! لا حاجة إلى أن أعيد على مسمعك أن ليس هناك أمنية لروبير غير السفر ، ولكنه لا يعتقد . . .

فقاطعتنى قائلة :

— استمع يا برتراند ، إنى على يقين من سفره . ولقد أخبرنى أنه صمم على ذلك ، ولكنى عارضته ، وبكيت وتوسلت اليه ، وأخاف أن يوهن ذلك من عزمه

— لقد عسر على الفهم . . لم هذه الكوميدية . . . ؟

— إن ابتسامة واحدة منى يا برتراند لكافية أن تكشف الستار عن نصف رغائبه على الأقل ، وأن تخلق فى نفسه الشك فى علمى بأمره . . . وكل ما أرجوه منك يا عزيزى الصغير أن تحبذ له فكرة السفر وأن تحمله على الاعتقاد بأن فى هذه الرحلة ضماناً لمستقبله وعظمته ، وإذا ما غير من رأيه وفضل البقاء على الرحيل فلا بد أن يغير من هذه الطريقة فى معاملته لى ، وأن يزيل من نفسه هذا النوع من الشفقة الخسيسة على ، وقل له إن هو هجر البيت مرة فانه سيعود فيجده خراباً . . ألق فى ذهنه هذه المعانى وقل له إن سبيل التعزية الوحيد فى غيبته — هو الرحلة الصغيرة التى أفهمتك عنها

فقلت : مسكين أنت يا روبير !

فقالت فى هدوء : حقا . . انه مسكين !

آلام فرتر
للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى
ترجمها الاستاذ
احمد حسن الزيات
ثمنها ١٥ قرشاً